

الأثر الحضاري لتمبكتو في انتشار الثقافة العربية الإسلامية خلال القرن السادس عشر ميلادي

The cultural impact of Timbuktu in the spread of Arab Islamic culture during the sixteenth century

د. التومي زينب

جامعة تمراست

تاريخ القبول: 2018/10/28

تاريخ الإرسال: 2018/04/14

ملخص:

هذه الورقة البحثية عبارة عن دراسة لأحد أهم حواضر السودان الغربي وهي تمبكتو التي تأسست على يد الطوارق، في القرن الحادي عشر ميلادي حين ضعف مركز ولاتة بعد أن غزا المرابطون غانا أصبح مكان تمبكتو منذ ذلك الحين مركز الالتقاء والتبادل التجاري الأول في السودان الغربي كله، أصبحت مركزًا تجاريًا رئيسيًا اشتهرت بتجارة الذهب والملح ثم مركزًا للتعليم الإسلامي في القرن الرابع عشر والخامس عشر، ويعتبر القرن السادس عشر، عصر الازدهار لمدينة تمبكتو، وهي واحدة من أوائل المراكز الأفريقية للثقافة الإسلامية قسمت الدراسة إلى مبحثين يتحدث المبحث الأول عن نشأة وازدهار مدينة تمبكتو، أما المبحث الثاني يتناول التعليم العربي الإسلامي ومراحل وطرق وأمكنة التدريس. والتواصل الحضاري بين تمبكتو وحواضر المشرق والمغرب.

Abstract:

Timbuktu is a city situated in the West African. Founded in the 11th century by the Tuareg, it became a major trading center (primarily for gold and salt) and a center of Islamic learning by the 14th century. The sixteenth century, the era of prosperity for the city of Timbuktu. It later flourished in trade and as one of the early African centers of Islamic culture. This paper reviews the

trend of Timbuktu civilization. The study was divided into two sections the first is about the emergence and prosperity of the city of Timbuktu, while the second sections the deals with Arab-Islamic education and its stages and methods and places of teaching .and Cultural communication between Timbuktu and the cities of The Arab Orient with Arab Maghreb.

تمهيد:

بلغت الحضارة الإسلامية أوج ازدهارها في القرن السادس عشر في السودان الغربي مع تطور تجارة القوافل التي تعد أهم منافذ الإسلام إلى الساحل، انتشر الإسلام في تلك المنطقة ابتداء من القرن الثاني الهجري وذلك بالوسائل السلمية وبخاصة التجارة والهجرة ومنذ استقرار الإسلام في القرن التاسع الميلادي بدأت تظهر تأثيراته في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية ومع ازدهار التجارة ظهرت المدن والحواضر، من الضروري بمكان الحديث عن أهم تلك الحواضر وأشهرها مدينة تمبكتو، التي تعاضمت شأنها في القرن الرابع عشر والخامس عشر ميلاديين، ومع نهاية القرن السادس عشر اعتراه الضعف بسبب الغزو المغربي حيث اتخذها مقر الجيش وارتحل علمائها.

أصل التسمية:

ورد اسم تنبكتو على عدة أنماط مختلفة حيث نجد في كتب تاريخ السودان المحلية رسم تنبكت بضم تاء الأولى والأخيرة⁽¹⁾ وعند الرحالة العرب "تنبكتو" وضبط اسمها ابن بطوطة تُنبكُتُو بضم التاء وسكون النون وضم الباء وسكون الكاف وضم التاء المملوءة وواو⁽²⁾.

(1) - محمود كعت بن المتوكل كعت الكرمني التنبكتي، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، باريس، طبع هوداس ودولافوس، 1964، ص14. ينظر أيضا: عبدالرحمان بن عبدالله السعدي، تاريخ السودان، طبعه هوداس، باريس، 1981، ص20.

(2) - رحلة ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم وتحقيق: الشيخ محمد عبدالمنعم العريان، بيروت، دار إحياء العلوم، ج1 ص2، ص707. ينظر أيضا: حسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، تر: محمد حجي، وصف إفريقيا، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983، ج2، ص165.

ورسمها بعض الباحثين بـ تونبوكتو⁽³⁾، كذلك رسمت طونبوكتو حيث استبدل حرف التاء بحرف الطاء⁽⁴⁾.

وأما أصل تسميتها بهذا الاسم فيرى أن الاسم جاء من اسم امرأة عجوز؛ أي كانت أرضا ملكا لعجوز من توارك مغشرون ورواية أخرى أن تنبكت أو تمبكتو هو بئر بكتو حيث أن الكلمة أمازيغية تنقسم إلى قسمين "تن" و"بكتو" تن تعني البئر وبكتو هو اسم العجوز التي تقطن قرب ذلك البئر، ومنها أصبح يعرف المكان بئر بكتو وهو تنبكتو⁽⁵⁾.

كما يذكر السعدي اسم تنبكت في أصله لعجوز: "وخازنهم أمتهم مدعوة تنبكت ومعناه في لغتهم وهي بما فسميت الموقع المبارك"⁽⁶⁾، يتضح أن تسمية تنبكت عند السعدي تعني عجوز فيتفق أغلب الباحثين على أن تنبكت اسم لعجوز تقطن قرب البئر فسميت المدينة باسمها.

كان الطوارق قد عهدوا إلى إمارة عجوز بالبقاء في ذلك المكان حينما يغادرونه في رحلتهم الصيفية، وكانت تحرس لهم فيه بعض المخازن والبيوت⁽⁷⁾.

الموقع:

تقع مدينة تنبكتو ضمن السودان الغربي على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى ما يعرف منحى نهر النيجر وهي قريبة من نهر النيجر⁽⁸⁾ ويقول ابن بطوطة "وبينها وبين النيل

⁽³⁾ - د. محمد غربي، إشراف د. نقولا زيادة، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي الحكم المغربي في

السودان الغربي نشأته وأثاره، ج1، الكويت مؤسسة الخليج للنشر، 1982م، ص75.

⁽⁴⁾ - نعيم قدام، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص75.

⁽⁵⁾ - عبد القادر زبادة، مملكة سنغاي في عهد الاسقيين، الجزائر، ص100.

⁽⁶⁾ - السعدي، تاريخ السودان، مصدر سابق، ص21.

⁽⁷⁾ - عبد القادر زبادة، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، دراسات

ونصوص، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1989، ص61.

⁽⁸⁾ - محمد علي فاضل باري وسعيد إبراهيم كريمة، المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، بيروت

ط1، دار الكتب العلمية، 2007، ص97.

أربعة أميال"⁽⁹⁾. أطلق العرب في القدم على نهر النيجر اسم النيل و الأساس في ذلك اعتقادهم إنهما ينبعان من مصدر واحد وهي بحيرة كوري.

وموقعها على ثنية نهر النيجر جعلها محاطة بجميع الاتجاهات الشرقية والغربية و الشمال والجنوب بكبريات مدن السودان الغربي، كما أنها مفرق طرق القوافل التجارية⁽¹⁰⁾.

نشأتها:

نشأت تمبكتو تدريجيا ويعود تأسيسها إلى طوارق "إيمغراشن"، في القرن الخامس الهجري الموافق للحادي عشر ميلادي، حينما اتخذوا من مكانها مرعى لأغنامهم في حدود ذلك التاريخ فيمضون فصل الصيف على ضفاف نهر النيجر، وفي فصل الخريف ينكفئون إلى ديارهم في أروان، وما لبثوا أن استقروا حيث اجتذب المكان سكان أروان، وقبائل صنهاجة بأجناسها، وحلت تمبكتو محل بيرو القديمة (ولاعة)، التي كانت سوق مقصودة لاسيما من مصر و وجل (أوجلة) وفزان وغدامس وتوات ودرعه و تفلالة، والسوس، والبيط فلما بنيت تمبكتو انتقل الجميع إليها وتحولت لها جميع الطرق التجارية⁽¹¹⁾.

ويقول السعدي أن تمبكتو كانت خرابا لبير: "ثم انتقل الجميع إلى تنبكت قليلاً قليلاً فكانت عمارة تنبكت خرابا لبير"⁽¹²⁾.

بعد أن غزا المرابطون غانا، ربما قل الأمن في تلك الجهات أيضاً، أصبح مكان تمبكتو منذ ذلك الحين مركز الالتقاء والتبادل التجاري الأول في السودان الغربي كله⁽¹³⁾

يعد منسا موسى أول من أدخل الفن المعماري المغربي الأندلسي وعن طريق الشاعر الساحلي، وهو مهندس غرناطي استقدمه منسا موسى حين عاد من الحج خلال القرن

(9) - تحفة الأنظار، ج 1، ص 707.

(10) - السعدي، تاريخ السودان، مصدر سابق، ص 21.

(11) - السعدي، تاريخ السودان، مصدر سابق، ص 21.

(12) - السعدي، تاريخ السودان، مصدر سابق، ص 21.

(13) - عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الاسقيين، الجزائر، ص 100.

الرابع حيث بنى له فيها قصر فخم، وبنى بها مسجد وذلك قبل أن يشيد بها مسجد سنكور الجامع، عرفت بعد ذلك هجرة علماء ولادة التي كانت المركز الثقافي الأول في غرب إفريقيا فازدهرت تمبكو، وبالتدرج تحولت إلى مركز ثقافي وتجاري، وخلال القرن الخامس عشر والسادس عشر في أيام حكم الاسقيين، أخذت تتوسع و انتظمت شوارع المدينة وتكامل البناء في الالتصاق والالتئام وأصبحت تمبكتو خلالها العاصمة الاقتصادية والثقافية⁽¹⁴⁾.

وصف كعت على غرار السعدي تنبكت بالجمال فيقول كعت: "فكانت تنبكت قبل نزول هذه المحلة بها، وقبل إجلاء أولاد القاضي محمود بن عمر وحفدته وأسباطه في غاية الحسن والجمال... وهي موصوفة ببعض ما وصف الحريري البصرة في المقامة الثامنة والأربعين... فتنبكت يومئذ لا نظير في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب من بلاد ملى (مالي)، وتلطفا بطلبة العلم"⁽¹⁵⁾، يشير كعت في نصه إلى تنبكت، بأنها مركز علمي هام في غرب إفريقيا.

أما السعدي فوصفها بالجمال والروعة حيث نظم مقامات تشبه مقامات الهمذاني ويقول: "البلدة الطاهرة الزكية، الفاخرة ذات البركة، ونجعة وحركة التي هي مسقط راسي وبعية نفسي، ما دنستها عبادة الأوثان وما سجد أديمها قط غير الرحمان، مأوى العلماء والعابدين، وما لف الأولياء والزاهدين"⁽¹⁶⁾.

ازدهار التعليم والثقافة العربية الإسلامية في تمبكتو:

بعد استقرار الإسلام بالسودان الغربي مع نهاية القرن التاسع الميلادي، تشكلت تنظيمات حكومية، تحطت الشكل القبلي القديم بالتدرج وقد وصلت إلى المرحلة الوطنية مع نهاية القرن الخامس عشر⁽¹⁷⁾.

(14) - السعدي، تاريخ السودان، مصدر سابق، ص22.

(15) - محمود كعت، مصدر سابق، ص 178-179.

(16) - السعدي مصدر سابق، ص 20-21.

(17) - خلال العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، تكونت في السودان الغربي ثلاث ممالك كبرى ظهرت خلال تلك الفترة ممالك في غرب إفريقيا وعاصرت بعضها بعضا، غير أن الشهرة والعظمة

تعاضم شأن تنبكتو في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وفي نهاية القرن السادس عشر بدأت تضعف بعد أن غزا المغاربة البلاد فقد ارتحل عدد من أبرز علمائها أشهرهم أحمد بابا التنبكتي وقل بها الأمن وأثر ذلك على قدوم القوافل التجارية بشكل جلي⁽¹⁸⁾.

وتحدث حسن الوزان عن تنبكتو في القرن الخامس عشر وأشار إلى أثر اتصال الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بملك تنبكتو الاسقيا الحاج محمد سنة 1502م، في شأن طغيان اليهود، وقال أن هذا الملك عدو لدود لليهود لا يريد أن يقطن أحد منهم في المدينة وإذا علم أن تاجراً من بلاد البربر يخالطهم أو يتجر معهم صادر أمواله⁽¹⁹⁾.

ووصف الحياة فيها وقال: "وفي تنبكتو عدد كثير من القضاة والفقهاء والأئمة يدفع الملك إليهم جميعاً مرتباً حسناً ويعظم الأدباء كثيراً، وتباع مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر، وتدر أرباحاً تفوق أرباح سائر البضائع وتستعمل قطع الذهب الخالص بدلا من العملة المسكوكة والودع لشراء الأشياء التافهة ... ويصف السكان أغنياء مترفون لاسيما الأجانب المقيمين في البلاد وفيها دكاكين النسيج وتصل إلى تنبكتو أقمشة من أوربا

والسيادة العامة، فضلا عن القوة وسعة النفوذ، تولدت بين هذه الممالك واحدة بعد الأخرى لقد وجدت هذه الدول كلها في عصر واحد تقريباً، وقد ظهرت في البداية مملكة غانا في منطقة شمال السنغال وجنوب موريتانيا حالياً، وكان قيامها في الأول في شكل قبلي صرف طغت فيه قبيلة على مجموعة من القبائل وفرضت عليها الخضوع لحكمها، وبنفس الطريقة أقامت قبائل الماندينغ مملكة مالي التي بلغت قوتها خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر، وظهر في القرن الثالث عشر، فكان في ذلك جمع بين الصورة القبلية السابقة والصورة الوطنية المقبلة، ثم قامت مملكة سنغاي في عهدها الأول في شكل قبلي أيضاً، ويعود للاسقيا محمد الأول 1493-1528، أبعدها عن الشكل القبلي وأعطاه صبغة وطنية لمزيد من التفاصيل ينظر: زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي مرجع سابق، ص 60.

(18) - السعدي، مصدر سابق، ص 23.

(19) - حسن ابن الوزان محمد الفاسي، تر: محمد حجي، ومحمد الأخضر، وصف إفريقيا، ط2، بيروت دار الغرب الإسلامي، 1983م، ج 2، ص 167.

يحملها تجار بلاد البلاد البربر"⁽²⁰⁾. يتضح من ذلك ازدهار تمبكتو الاقتصادي والثقافي بالدرجة الأولى بحيث تجارة الكتب هي التي تحقق أرباح تفوق سائر البضائع ما يدل على ارتفاع المستوى الثقافي بالدرجة الأولى.

وأصبحت تمبكتو في القرن السادس عشر نقطة التقاء القوافل التجارية والمركز الثقافي الأول في بلاد السودان، ويوضح لنا التاريخ بأن تمبكتو ازدهرت بفضل هجرة الأشخاص من ولاتة تجار ومثقفين على السواء، ويتضح جليا بأنهم استقدموا معهم عاداتهم وفي نفس الوقت تجارهم، جلبوا معهم الشراء والعلوم⁽²¹⁾.

مظاهر الازدهار:

تضاعف عدد سكان تمبكتو خلال القرن السادس عشر، وانتظم العمران، وحدث وأن تجادل في محاورة لطيفة جماعة من سكان تمبكتو، وجماعة من سكان غاؤ، واحتد النقاش مما أدى بما إلى عد بيوت كلا المدينتين على حدة واستدل من ذلك على أن سكان تمبكتو يزيد على الثلاثين ألف ساكن⁽²²⁾ يروي كعت ذلك ويقول: "... كاغ - يقصد غاؤ - وعظمتها وكثرة سكانها وقد حكى الشيخ محمد بن علي درام أن أناسا من أهل كاغ وقال السودانيون كنو_ يقصد_ تنبكت_ أعظم من كاغ_ غاؤ_ وأكبر منها وبلغوا بي أمر ذلك وجداله ...، ودخل أولاد تنبكت وبعض أهل كاغ وأخذوا ورقة ودواة وقلما ودخلوا بلد كاغ وابتدءوا من أول بيت بمغربها يعدون القصور ويزمونها واحدا بعد واحد إلى ثلاثة أيام دار فلان ودار فلان إلى انتهاء بنيان البلد من المشرق..."⁽²³⁾.

كانت تمبكتو مركز تجاري كبير وعرفت حركة تجارية نشيطة بفضل موقعها المتوسط بين شمال الصحراء ومناطق جنوب الصحراء ومن أسباب عظمتها التجارية تقاطع طرق القوافل التي تعبر الصحراء عندها و من جهة أخرى مركزا لاستقبال وتجمع انطلاق البضائع

(20) - حسن ابن الوزان محمد الفاسي، تر: محمد حجي، ومحمد الأخضر، وصف إفريقيا، مصدر سابق ج2، ص-ص 166-167.

(21) - Félix Dubois, Tombouctou la mystérieuse, Paris, 1987, p.307.

(22) - زبادة، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، مرجع سابق، ص 60.

(23) - محمود كعت، مصدر سابق، ص ص 145-146.

من مدن المغرب العربي: المغرب، الجزائر، تونس، توات طرابلس، ومدن السودان الغربي فكانت حلقة وصل وميناء الصحراء التجاري⁽²⁴⁾، وقال السعدي: "... من أعظم أرض الله تعالى نعمة ورفاهية"⁽²⁵⁾.

ظهرت تمبكتو خلال القرن السادس عشر كمركز تجاري عظيم في السودان الغربي وربطت علاقات تجارية مع بلدان المغرب ومصر كذلك أصبحت خلال تلك الفترة إحدى مراكز الإنتاج الثقافي للحضارة الإسلامية، وزاد دورها عن استيعاب ما أنتجه العالم الإسلامي إلى المشاركة في تنميته ونشره بين أمم السودان الغربي وشعوبه⁽²⁶⁾.

مراحل التعليم ومناهجه:

كان التعليم في أول أمره محصورا بالأساتذة العرب القادمين من شمال إفريقيا، وبعد مضي مدة تكونت طبقة مثقفة من الإفريقيين تولت مهمة التعليم بعد أن تخرجت من المدارس العربية في المغرب ومصر. وأغلبية المعلمين الإفريقيين من رجال الدين الذين أتقنوا اللغة العربية ومارسوا التعليم بها لأنها كانت لغة الدين والثقافة والتجارة خلال ثمانية قرون⁽²⁷⁾.

ازدهرت حركة التعليم في تمبكتو لاسيما عهد حكم الاسقيين في سنغاي، وكان على ثلاثة أقسام: التعليم في الكتاتيب والثاني في حلقات المساجد والتعليم في المدارس. ويمر التعليم بثلاث مراحل الابتدائي والثانوي وعال.

وتعد المرحلة الأولى الابتدائية والأساسية لكل طالب يتمكن خلالها الطالب من التزود بالمبادئ الأولية للتعليم القراءة والتسجيل قبل أن ينتقل لمرحلة أخرى وهي أن يجلس في حلقة أي أستاذ وتعتبر هذه المرحلة الوحيدة التي يراعى فيها إلى حد ما السن، فكان التلاميذ في الابتدائي لا يتجاوزن في أغليبتهم سن الصبا⁽²⁸⁾.

(24) - Félix Dubois, Tombouctou la mystérieuse Op,Cit,p232.

(25) - السعدي، تاريخ السودان، مصدر سابق، ص 142.

(26) - زبادة، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، مرجع سابق، ص 62.

(27) - نعيم قداح، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، مرجع سابق، ص 133.

(28) - زبادة، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، مرجع سابق، ص 63.

والمحضرة مؤسسة من مؤسسات التربية العربية الإسلامية الأصيلة تحمل بعض خصائص النظام التربوي الذي نشأ وازدهر في حواضر الخلافة ولكن لها سماتها الخاصة، ويتدرج المتلمذ في المحضرة من مستوى ابتدائي ومتوسط إلى أعلى مستويات التخصص و هي جامعة موسوعية تقدم للطالب معارف في مختلف فنون المعرفة الموروثة وهي:

- القرآن حفظه ورسمه وتجويده وبقية علومه.

- الحديث متنه ومصطلحه ورجاله.

- العقيدة وعلم الكلام والتصوف.

- السير التاريخ والأنساب.

- الأخلاق وآداب والسلوك.

- العروض.

- علم الفلك الطب الجغرافيا.

- المنطق.

- البلاغة.

- الصرف.

- العروض والقوافي⁽²⁹⁾.

وغالبا ما تكون المحضرة ملاصقة للمسجد⁽³⁰⁾. وحسبما ذكر كعت: " وفيها مدارس للصبيان الذين يقرأون القرآن مائة وخمسين أو ثمانين مكتبا"⁽³¹⁾.

وكان من الأمور التي استحسناها ابن بطوطة خلال رحلته إلى السودان حرص الآباء في تعليم أولادهم فكانوا يقودونهم و يجبرونهم على الدوام ويراقبون مدى استيعابهم، فيذكر إن الصبي والشاب يقيد حتى لو كانت مناسبة عيد حتى يتم حفظ القراء، ويذكر مثال

⁽²⁹⁾ - الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

1987، ص ص35-55.

⁽³⁰⁾ - السعدي، ص58.

⁽³¹⁾ - محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص180.

عن ذلك أن قاضي قيد أولاده يوم عيد، ولم يفك وثاقه رغم توسل البعض إليه في ذلك حتى حفظ الجزء الذي طلب منه⁽³²⁾.

وتنتهي مرحلة التعليم الأولى بحفظ بعض المبادئ الفقهية وبختم القراءة كله، أو جزء منه⁽³³⁾. وبعد أن ينهي الطالب مرحلة التعليم الابتدائي، يدخل مرحلة التعليم الثانوي والعالوي، ولم يكن لهاتين المرحلتين عرف معين في السن، كما لا توجد فروق بين الطلبة في هاتين المرحلتين، أي حلقات المساجد والمدارس ومرد ذلك لكون التعليم فيها حرا بالنسبة لانخراط الطلبة، وكان الأستاذة في هاتين المرحلتين يجلسون للتدريس ويتحلق حولهم الطلاب ويجلس الطالب في حلقة ما حسب رغبته في المادة التي يكون الأستاذ بصدد تدريسها أولا ثم قدرته على الفهم والاستيعاب⁽³⁴⁾.

يبدل الشيخ جهده بدون مقابل، وقد يتحصل على الهبات والهدايا لكن لا يطلب عوض عن عمله⁽³⁵⁾، ويتمثل حب أهل السودان الغربي للعلم في إكرامهم للمعلم، فكثير من المعلمين كانوا يعملون لوجه الخير والمعرفة، إلا أن العادة قد جرت على أن يتلقى بعض المدرسين المحتاجين جريات وإعانات ومن تبرعات من الأوقاف أو من الطلاب⁽³⁶⁾، وقد تلقى المدرس علي تكريا على ودائع من تلاميذه البالغ عددهم مائة وثلاثة وعشرين قدرها ألف وسبعمائة وخمسة وعشرين ودعا⁽³⁷⁾.

فتقوم المحاضرة على أساس من التطوع والمبادرة الحرة في الدراسة والتدريس معا، وتختلف طواعية الشيخ المحاضرة عن طواعية الطالب، فطوعية مدرس المحاضرة فهو ملزم بحكم اختياره

(32) - تحفة الأنظار، مصدر سابق، ص 704.

(33) - د. محمد غربي، إشراف د. نقولا زيادة، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي الحكم المغربي في

السودان الغربي نشأته وأثاره، ج 1، الكويت مؤسسة الخليج للباعة والنشر، 1982م، ص 555.

(34) - زيادة، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، مرجع سابق، ص 64.

(35) - الخليل النحوي، ص 59.

(36) - نعيم قداح، مرجع سابق، ص 133.

(37) - كعت، مصدر سابق، ص ص 180-181.

أن يقف عند رغبة الدارس يعلمه ما يشاء في أي وقت شاء إلا لضرورة النوم أو لمناخ مرض أو نحوه، أما طواعية الدارس فمبناها أن لا إكراه في العلم، فالمدرس لا يتدخل للدارس في اختيار المادة لا كما ولا نوعاً. وقلما يتدخل له في تحديد وقت الدراسة وهو لا يراقب غيابه إلا أن يتفقد ليطمئن على صحته مثلاً. بل الطالب في المحاضرة رقيب على نفسه، مسؤول عن اختياره مفوض في شأنه، يأتي المحاضرة متى شاء، يدرس أي متن شاء، وإذا لم ترضيه دروس شيخه يتركه فوراً إلى غيره⁽³⁸⁾.

فقد كان الطالب في المحاضرة يمارس على نفسه رقابة ذاتية صارمة فالمجتمع يريه على الإحساس بأنه حر مسؤول لا وصي عليه، وجهده الدراسي هو رمز رجولته وبيان رشدته وبرهان نضجه⁽³⁹⁾.

ومنهج الدراسة في الحلقات المساجد يكون بكتب بسيطة بعيدة عن التفاصيل ويتولى تدريسها الشيخ -الأشياخ-⁽⁴⁰⁾. وقدم السعدي نماذج للكتب المتداولة في مناهج التعليم كتب عياض وكتب سحنون وشروح أبو القاسم وخلييل وكتب المغيلي والونشريسي وموطأ مالك والخزرجية، وتحفة الحكام والعباد، وكتب أخرى مقدمة التاجوري وصحيح البخاري وصحيح مسلم⁽⁴¹⁾.

ويبدو أن الأشياخ أو شيخ المحاضرة متوسطي الثقافة بالنسبة للأساتذة فوصف السعدي البعض بالشيخ والبعض الآخر بالأستاذ وهذا ما يوضح انفصال في المنهاج في حلقات المدارس والمساجد⁽⁴²⁾.

وكان الأساتذة يقسمون أوقاتهم خلال النهار، فيدرسون مثلاً في الصباح طلاب مستوى ثانوي، ثم يجلسون بعد الظهر لطلاب المرحلة العليا أو العكس⁽⁴³⁾.

(38) - خليل النحوي، مرجع سابق، ص ص 58-59.

(39) - نفسه، الخير والمعرفة، ص 60.

(40) - تاريخ الفتاش، ص ص 16-63.

(41) - تاريخ السودان، ص ص 38-39.

(42) - زيادة، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، ص 64.

أمكنة التدريس:

كانت أمكنة التدريس الأساسية هي المساجد، مع وجود أماكن خاصة بمرحلة التعليم الابتدائي خارج المسجد، وبيوت المعلمين واتخذت عرصات البيوت أيضا مكان للتعليم وقد ذكر كعت واحد من بينها مكتب علي تكريا: "اسرحت نظري إلى ألواح الصبيان المتخذة بعرضه داره وعددت منها مائة وثلاثة عشرين لوحا"⁽⁴⁴⁾. واتخذت بعض المخازن التجارية المهجوة كأمكنة لاحتضان التلاميذ المقبلين على التعليم الأولي⁽⁴⁵⁾.

ولقد كان التعليم بجميع أطواره يجري في المساجد والجوامع، وكان من أشهرها جامع سنكوري، يقع في شمال مدينة تمبكتو وكان يعج بالطلبة والمدرسين خلال القرن السادس عشر⁽⁴⁶⁾، ثم يرتب بعده **الجامع الكبير** -دقيرير- كان قد بناه أبو عبدالله الساحلي أحد شعراء غرناطة، وكان معماريا استقدمه السلطان موسى كان قد التقى به في موسم الحج ويصف السعدي المسجد: "أما الجامع الكبير فالسلطان الحاج موسى صاحب ملى هو الذي بناها وصومعتها على خمسة صفوف والقبور لاصقة بها من خارجها في جهتي اليمين والمغرب وتلك عادة السودان أهل المغرب لا يدفنون موتاهم إلا في رحاب مساجدهم وجواناها... وذلك بعد ما رجع من الحج، ثم أورد أن القاضي العاقب بن القاضي محمود حרב المسجد في النصف الثاني من القرن السادس عشر وأعاد بناؤه وأدخل عليه تحسينات ووسعت مساحته في نفس الفترة النصف الثاني من القرن السادس عشر، وكان ذلك في عهد أسكيا داوود الذي ساهم بدوره في توسعته وإعادة بنائه، وبعث له أربعة آلاف خشب من شجرة كنكو فختم بناؤه في هاته السنة"⁽⁴⁷⁾.

(43) - السعدي، مصدر سابق، ص 44.

(44) - كعت، ص 180.

(45) - د. محمد غربي، ص 551.

(46) - يذكر أن المسجد كان قد بناه سيدة فاضلة من الميسورات وكان دارج في الثقافة الإسلامية بناء المساجد ومن أمثلة ذلك بناء السيدة فاطمة الفهريه لجامع القرويين، كذلك كان الفضل إلى الخاتونات بنات السلطان العادل الأيوبي في بناء مساجد في الشام والعراق ومصر ويلاحظ مدى تأثر التمكنين بالتقاليد الإسلامية من المشرق إلى المغرب. ينظر: زبانية، ص 65.

(47) - تاريخ السودان، ص 56-110.

كما وسع القاضي "العاقب" جامع سنكوري وصرف على الأشغال من ماله الخاص وأخذ مقاس طولاً وعرضاً من الكعبة الشريفة خلال حجّه إلى مكة المكرمة⁽⁴⁸⁾.

ويأتي بعده مسجد سيدي يحيى، وقد بني تخليداً لأحد علماء المغرب وهو يحيى التادلسي وقد سكن تمبكتو، وكان في حياته قد اتخذ في مكان ذلك المسجد بيتاً صغيراً للتدريس وأن أهل تمبكتو يعتقدون فيه بنو علي قبره ذلك المسجد⁽⁴⁹⁾، وأعاد بنائه وتوسعته القاضي "العاقب"، فيذكر كعت: "وأنفق في بناء هذه المساجد الثلاثة ما لا يعرف نهايته إلا الله"⁽⁵⁰⁾. وتشير أعمال التوسيع إلى تكاثر الطلبة وازدهار التعليم.

طريقة التدريس:

ترتكز طريقة التدريس في المحاضرة على المناقشة فهي تختلف عن طريقة التلقين ويعد هذا كنتيجة إيجابية لقيام المحاضرة على روح التطوع والمبادرة إذ نشأت علاقة طيبة بين الأستاذ وطلابه فهو يخاطبهم بتواضع ويعاملهم باحترام فالتواضع ولين الجانب من شيم الأساتذة اللامعين بتمبكتو⁽⁵¹⁾، ويصف السعدي أستاذه: "مطبوعاً على الخير وحسن النية... والتواضع التام وبذل نفائس الكتب الغريبة العزيزة لهم ولا يفتش بعد ذلك عنها... كذلك من الصفات للأساتذة يوردها السعدي الصبر على تفهيم طلبته فيقول صبر عظيم على التعليم أثناء النهار وإيصال الفائدة إلى البليد بلا ملل ولا ضجر"⁽⁵²⁾.

وكانت الطريقة الشائعة في التدريس أن يملي الأستاذ رأيه في المسائل على طلبته وبعد ذلك يقرأ الطلاب درسهم من الكتاب المقرر بحضور ثم يطلب كل منهم توضيحاً على ما أشكل عليه، وأثناء ذلك يقيد الطلبة التفسيرات التي يقدمها الأستاذ جواباً على استفساراتهم⁽⁵³⁾.

(48) - كعت، ص 122.

(49) - زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، مرجع سابق، ص 65

(50) - كعت، ص 123.

(51) - الخليل النحوي، مرجع سابق، ص 60. أيضاً: زبادية، ص 66.

(52) - السعدي، تاريخ السودان، ص 44.

(53) - زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، مرجع سابق، ص 66.

الشهادات:

عرف التعليم في تمبكتو نظام الإجازات والكفاءات كما عرفته البلاد الإسلامية الأخرى فكان، من عادة طلاب المحاضر أن يهتموا بجمع أكبر عدد ممكن من الإجازات من جميع الشيوخ الذين تلقوا عنهم⁽⁵⁴⁾. ويذكر السعدي بأنه تحصل على إجازة من أستاذه فيقول بعد الدعاء له: "باحثته كثيرا في المشكلات وراجعته في المهمات و بالجملة فهو شيعي و أستاذهي ... وأجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه"⁽⁵⁵⁾، ويحفل نص الإجازة بعبارات المودة والتعظيم للطلاب وغالبا ما تتضمن الإجازة الدعاء الصالح للمجاز وحته على التقوى وطاعة الله⁽⁵⁶⁾. وكان الأساتذة لا يجيزون الطلاب إلا بعد التأكد من تمكنهم في المواد التي يدرسونها لهم.

التواصل الحضاري بين تمبكتو وحواضر المشرق والمغرب:

انتشرت اللغة العربية والثقافة الإسلامية في السودان الغربي ويعود الفضل في ذلك لتمبكتو حيث عرفت ازدهار فكري وتواصل حضاري مع حواضر المشرق الإسلامي ودول المغرب، فمنذ القرن الثالث عشر انتقل عدد علماء ولادة إلى تمبكتو كنتيجة انتقال مركز التجارة بين المغرب والسودان الغربي، وحينما زار ابن بطوطة في القرن الرابع عشر تلك المنطقة وجد جماعة من معارفه يتعاطون التدريس، أما في القرن السادس عشر ذكر السعدي أساتذة من المشرق والمغرب.

ازدهرت الثقافة العربية والإسلامية في تمبكتو وساهم في ذلك رحلات العلماء من المشرق والمغرب ورحلات السودانيين أنفسهم إلى الحواضر الإسلامية لمجالسة العلماء، أهتم ملوك مملكة مالي والسنغاي بنشر الثقافة العربية، فنجد منسا سليمان أخو منسا موسى خليفته من بعده جلب العديد من الفقهاء إلى بلاده من أجل نشر الثقافة الإسلامية⁽⁵⁷⁾.

(54) - الخليل النحوي، مرجع سابق، ص 197.

(55) - السعدي، تاريخ السودان، ص 46.

(56) - الخليل النحوي، مرجع سابق، ص 179.

(57) - العمري شهاب الدين أحمد بن فضل، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: حمزة أحمد

عباس، أبو ظبي المجمع الثقافي، السفر الرابع، 2002م، ص 105

ويذكر السعدي أن عبد الرحمان التميمي رجل اصطحبه منسا موسى حين رجع من الحج فسكن تنبكت وأدركه حافلا بالفقهاء السودانيين ولما رآه أنهم فاقوه عليه في الفقه رحل إلى فاس وتفقده هناك⁽⁵⁸⁾، وقدم إلى تمبكتو من توات أبو القاسم التواتي لغرض الدراسة والتفقه في الدين⁽⁵⁹⁾.

وخلال رحلة علماء تنبكتو إلى الحج يجالسون العلماء اللامعين في مصر والحجاز وبعد عودتهم يكونوا قد تحصلوا على إجازات، فيقول السعدي: "...محمود بن عمرو وغيره ورحل للشرق ... فحج وزار واجتمع بجماعة كالناصر اللقاني والشريف يوسف تلميذ السيوطي والجمال ابن الشيخ زكرياء و الجواهري والتاجوري بمكة"⁽⁶⁰⁾ وذكر السعدي علماء آخرون ذاع صيتهم شرقا وغربا، جنوبا وشمال أحدهم من آل آقيت، وخلال زيارتهم للحج يلتقوا بعلماء كإبراهيم المقدسي، القلقشندي و رجع لبلاده ولازم الإفادة"⁽⁶¹⁾.

خاتمة:

كانت تمبكتو تمثل منارة وقاعدة هامة إسلامية أيضا كان تمثل مركزا تجاريا ونقطة التقاء القوافل التجارية، وحلقة وصل بين مدن المغرب العربي والمشرق العربي، قامت تمبكتو بدور كبير في نشر الثقافة الإسلامية في السودان الغربي كله، وأصبحت من أهم وأشهر الحواضر الإسلامية في العالم، وترتب على ذلك تحضر السكان وأهم العوامل التي ساعدت في ذلك ازدهار الحركة التعليمية وحب الأفارقة وأهله كما ذكر كعت أن أهلها كانوا من أكثر الناس تلطفا بطلبة العلم وإعانتهم، تعاضم شأنها الفترة ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر وفي نهاية القرن السادس عشر، بدأت تضعف بعد حملة أحمد المنصور.

(58) - السعدي، تاريخ السودان، ص51.

(59) - نفسه، ص59.

(60) - نفسه، ص42.

(61) - نفسه، ص38.

المصادر والمراجع:

المصادر:

- العمري شهاب الدين أحمد بن فضل، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: حمزة أحمد عباس، أبو ظبي المجمع الثقافي، السفر الرابع، 2002م.
- حسن ابن الوزان محمد الفاسي، تر: محمد حجي، ومحمد الأخضر، وصف إفريقيا مصدر سابق. ج2.
- عبدالرحمان بن عبدالله السعدي، تاريخ السودان، طبعه هوداس، باريس، 1981.
- محمود كعت بن المتوكل كعت الكرمي التنبكي، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، باريس، طبع هوداس ودولافوس، 1964.
- رحلة ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم وتحقيق: الشيخ محمد عبدالمنعم العريان، بيروت، دار إحياء العلوم، ج1 أ ج2.

المراجع:

- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1987.
- عبد القادر زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، دراسات ونصوص، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1989.
- عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الاسقيين، الجزائر.
- محمد علي فاضل باري وسعيد إبراهيم كيريرة، المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 2007.
- د. محمد غربي، إشراف د. نقولا زبادة، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي الحكم المغربي في السودان الغربي نشأته وأثاره، ج1، الكويت مؤسسة الخليج للباعة والنشر، 1982م
- نعيم قداح، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

المراجع الأجنبية:

Félix Dubois, Tombouctou la mystérieuse, Paris, 1987.